2- فن الوصف عند الشيخ عبد الله بن فودي (دراسة فنية موضوعية)

Art of description in Sheikh Abdallah ben Fodio Objective and artistic study

إعداد:الدكتور أبُّو سليمانُو
أستاذ الأدب والنقد المساعد/ في المعهد العالي لإعداد المعلمين / جَامعة مرْوَا
جمهورية الكاميرون
Dr: Abbo Souleymanou
ENS UMa
Rep. du Cameroun
abbo.lawana@gmail.com
TE:(00237) 691024372 / 679612621

تاريخ الاستلام: 3/7/2021 تاريخ القبول 25/7/2021

مستخلص البحث: وليس هنالك من بين علماء إفريقيا جنوب الصحراء، من ترك تراثا ضخما في الأدب في القرن التاسع عشر الميلادي مثل الشيخ عبد الله بن فوديو؛ والمنطقة تفخر بمؤلفات هذا العبقري، لا لكثرتها، وقيمتها فحسب، ولكن لشمولها معظم العلوم من: تاريخ، ولغة، ونحو، وصرف، ومنطق، وعلم الكلام، وعروض، وأدب. ولم يكن في غرب أفريقيا أعلم منه في ذلك الزمن. فقصائده، تميل إلى اتباع القدامى في الأبنية والتراكيب، ومفرداتها ضاربة في القدم، وبعضها معبّر عن البيئة الإفريقية وأماكنها، مع تتعدد الأغراض داخل القصيدة الواحدة.

والبحث يهدف إلى دراسة أدبية لشعر الوصف لهذا الشاعر الإفريقي المثقف، ويسلط الضوء على أعماله وإسهاماته والوقوف على مستوى الفن الوصف في الأدب العربي الإفريقي. وقد وصل الباحث إلى بعض النتائج وهي: كثرة الإنتاج الأدبي في هذه البقعة من إفريقيا شعرا كان أو نثرًا، فيكفينا دليلا ما خلفه هذا العبقري من تراث علمي ضخم، في الأدب، والنحو والصرف، والعروض، والبلاغة.

الكلمات الإفتتاحية: الشيخ عبد الله بن فودي، فن الوصف، إفريقيا جنوب الصحراء، جيش الفتوح، وصف الصحراء.

Summary:

Art of description in Sheikh Abdallah ben Fodio Objective and artistic study

Abstract:

Sub-Saharan Africa is proud of the works left by that genius, not only by their value and quantity, but above all by the various disciplines they cover: History, language, logic, rhetoric, metrics and literature. He was the greatest scholar of his time in Sub-Saharan Africa.

His vocabulary reflects the African societal life and its environment with multiple objectives within his poetry. This presents an important development in the poetic method of African literature because it exposes the epic events without however leaving the subject. However, this was not known before the Fulani era, just as the description of the desert was not present in the Sub-Saharan Arabic poetry. The poet seems to be the only one in this position in his time. He is also the only one to describe war an d the desert with so few words.

This work also, and above all seeks to study the poetic texts of Abdallah ben Fodio in both sections; that is, the introduction and the conclusion. The first part of this eork will deal with a brief study of the poet's life, the second with the presentation of extracts from his descriptive poetry, and the conclusion, will be focused on the results reached by the researcher.

I had recourse to the analytical descriptive method to explain the text and to the historical method for the life of the poet, just as I have allowed myself, in one way or another, to use the inte-grative method, which seems to me more suited to the different parts of this study.

Keywords: Sub-Saharan Africa, Cheick abdallâh ben fodio, descriptive art, the liberation army, African literature.

1. مقدمة:

يجب أن تحتوي مقدمة المقال على تمهيد مناسب للموضوع، ثم طرح لإشكالية البحث ووضع الفرضيات المناسبة، بالإضافة إلى تحديد أهداف البحث ومنهجيته.

هذا وقد اتبعت المنهج الوصفي التحليلي عند دراسة النصوص، كما سلكت على المنهج التاريخي في دراسة حياة الشاعر، بما يمكنني أن أزعم أنني اعتمدت بشكل أو بآخر على المنهج التكاملي، حيث رأيته أوفى المناهج لحمل أعباء الدراسة في أقسامها المختلفة.

هذا وتهدف هذه المقالة، إلى تقييم الأعمال القيمة لهذا الشاعر الإفريقي المثقف، ويسلط الضوء على أعماله وإسهاماته في مجال الأدب العربي، وهو عالم إفريقي موهوب ولديه أعمال كثيرة.

تمثل إشكالية الدراسة: ما مستوى الفن الوصف في الأدب العربي الإفريقي؟ وهل في القصيدة وحدة العضوية؟

2. المطلب الأول: التعريف الشاعر

لست هنا في مقام البحث عن الشيخ عبد الله بن فودي وشاعريته، حتى أستعرض الآراء التي دارت حوله وتناولت شعره، ولكنني هنا في مقام البحث على القيم الفنية في شعر الوصف عنده، ولذا فإنني سأقصر تعريفي بالشيخ عبد الله على: نسبه، ومولده، ونشأته، ووفاته، لما لها من علاقة وثيقة بموضوع هذا البحث.

اسمه ونسبه: هو أبو محمد عبدالله بن محمد الملقب بـ»فودي»[1] بن عثمان بن صالح بن هارون بن محمد الملقب بـ» غُوْرِطِ»، بن جبّ بن محمد بن سمبو بن ماسران بن أيوب بن أبي بكر بن موسى جكل الذي وصل بقبيلته « تورب» إلى بلاد نيجيريا. ولغتهم هي لغة الفلانية، سبقوا الفلانيين إلى «**حوص** « بسبع سنين وجدّهم «**موسى جَكَلْ**» ينتمي إلى عشيرة (**التُورْبِيِّين**) الفَلَّاتَه الذين استقروا في إمارة «**غُوبِرْ**».

أمّا نسب والده من جهة أمه فكذلك ينتمي إلى العشيرة نفسها، إذ يقول: «والدي هذا أمه مريم بنت جبريل بن حمّ بن عال بن جَبُّ الجد المتقدم»[2].

أمّا والدة عبد الله فهي كذلك تنتمي إلى العشيرة نفسها فهي: حواء بنت محمد بن عثمان بن حمّ بن عال... إلى آخر النسب، وأمها رُقيّة بنت العالم المشهور في قبيلتهم محمد بن سعد جنادان بن إدريس بن إسحاق بن ماسران... الخ.

فالملاحظ أنه ينتسب إلى هذه العشيرة من كل الأطراف التي كونت أسرته[3].

1.2 مولده:

تضاربت الآراء حول زمان ومكان ميلاده، أمّا إذا ناقشنا هذه الآراء، ووضعنا في

(1)– كلمة «**فُودِي**» تعني الفقيه باللغة الفُلاَّنية، وقد ضبطها الشيخ عبد الله بن فودي (أخو عثمان) في فهرسته المسماة «إيداع النسوخ» فقال: «ولقبه فُودي (بفاء مضمومة ضمة إشمام، وبعد الواو دال مهملة مضمومة وبعدها ياء ممالة). وقد رأيت هذا الضبط موجوداً على عدد من عناوين كتب الشيخ عثمان المخطوطة على هذا النحو «فودي»، أي على نحو ما ترسم كلمات كثيرة في المصحف برواية ورش عن نافع مثل: الهدى . الضحى . الأولى . أي بياء بها علامة الإمالة، وهي ألف فوقها ونقطة واحدة تحتها. وقد جرت العادة على كتابة الكلمة في المطبوعات الحديثة بياء مثناة عادية «فودي». ولذلك صار يقرأها الكثيرون بدال مكسورة عوض المضمومة تيسيراً للنطق. أما الذين كتبوا عن الشيخ عثمان وعائلته باللغات الأجنبية، فهم تارة يكتبون: فوديو (Fudi)، وتارة أخرى، (Fodye) فوديي، أما المتداول حالياً على الألسنة في منطقة الهوسا وبلاد الفلان، فهو: «فُودْيُو".

(2)– **راجع:** إنفاق الميسور في تاريخ بلادالتّكرور، ص:211. والثقافة العربية في نيجيريا، ص:135، و مختارات من مؤلفات الشيخ عبد الله بن فودي، ص:85،

(3) – **راجع:** ترجمته في: نصوص عربية من صكتو.. قاريونس 1993م.ص:45، وعبد الله بن فودي وحياته العلمية/ حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد الرابع، سنة:1998م، ص:57. والدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفلاني، مكتبة الزهراء للإعلام العربي القاهرة 1991م.

الحسبان قول عبدالله نفسه إنّ الشيخ عثمان يكبره بحوالي اثنتي عشرة سنة، فهذا يجعلنا نرجّح أن يكون تاريخ ميلاده سنة: 1766م[1].

ومهما يكن من أمر فإنّ الاختلاف حول ميلاد الشيخ عبدالله لم يكن بالشيء الكبير؛ إذا ما عُرف من ظروف الحياة في تلك الفترة؛ من تنقل وعدم اهتمام بالتواريخ وضبطها لدى سكان تلك المناطق، فحتى وقت قريب كان الناس فيها يؤرّخون بالأزمات المشهورة التي تشغل بال المجتمع ككل، كأن يقال ولد فلان في عام مرض الجدري أو عام الجوع أم سدر، وغالبا أنّ مثل هذه الأزمات تستمر لأكثر من عام.

2.2 نشأتــه:

نشأ الشيخ عبدالله على المنوال نفسه الذي نشأ فيه أخوه عثمان؛ حيث ولد في بيت علم؛ فيه الأب المعلم والأم المعلمة والأخ والأخت والخال والعم كذلك. فلا تجد في أسرته من ليس له مؤلفان على الأقل، ويؤكد كلامنا هذا كثرة من أخذ عنهم العلم ممن ذكرهم في كتابه (إيداع النسوخ من أخذت عنه من الشيوخ) فقد ذكر فيه حوالي ثمانية عشر شيخا من أشهر الذين أخذ عنهم العلم فكان تسعة منهم من أهل بيته وعشيرته؛ كأبيه وأمه وأخيه وأعمامه وأخواله وأبنائهم.

ويقول الوزير جنيد: «إنّ بيت عال هو أكبر بني موسى وهو بيت مشهور بالصلاح والخير، ومعروف بحفظ القرآن والخير، ودرس العلوم والاطلاع على غوامضه، فكان ذلك السرى يسير فيهم قرنا بعد قرن حتى خرج وظهر والد الشيخ، محمد المعروف بفودي رضي الله عنه»[2]، فمنذ أن بلغ عبدالله الخامسة من عمره صار يتنقل بين الفقهاء إلى أن بلغ مرحلة النضوج العلمي ثم التأليف، وقد لاحظنا أنّ مراحله العلمية تنقسم ثلاث مراحل:

المرحلة الابتدائية: وقد بدأ هذه المرحلة على يد والده لما بلغ الخامسة من عمره؛ حيث علّمه القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وقد أسهمت والدته وجدته كذلك في هذه المرحلة بصورة فعالة.

المرحلة الثانوية: وتتمثل في الفترة التي أودعه والده لأخيه الشيخ عثمان، وله عندئذ من العمر ثلاثة عشر عاما، يقول: « وقد تركني أبي في يده، بعد قراءة القرآن، وأنا ابن

(1) – **راجع:** مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، ص:123.
(2) – **راجع:** عبد الله بن فودي وحياته العلمية، ص:67.

ثلاث عشرة سنة»[1] فهيأه الشيخ عثمان وأعدّه لخوض مرحلة التخصص والتعمّق، التي هي في المستوى الجامعي اليوم.

المرحلة الجامعية: وتبدأ هذه المرحلة من بداية خروجه للتعلم خارج نطاق عائلته وأسرته، وارتحل إلى العلماء سواء داخل مدينته أو خارجها، وهذه المرحلة تتسم باتصاله بالأساتذة الكبار المتخصصين في مجالات بعينها، أمثال شيخه صاحب التأثير الكبير فيه، جبريل بن عمر، والشيخ محمد المغوري، ومحمد راج، والشيخ محمد الفربري، من فحول الأساتذة الأفاضل، ومحمد ثَمْبُو، وغيرهم من العلماء.

ويبدو جليا من كلام الأستاذ عبدالله أنّه وصل مرحلة التخصص في عام: 1201هـ عندما بدأ دراسة صحيح البخاري على يد شيخه محمد بن راج. يقول أحد الباحثين: «وقد لحظت أنّ معظم الذين غرسوا الأستاذ الشيخ عبدالله بن فودي . من أسرته . شغلهم الشاغل التعلم والتعليم؛ الأمر الذي أثر فيه تأثيرا قويا وجعله ينكب على طلب العلم حتى أصبح فحلا من فحول علماء عصره يشار إليه بالبنان، يلقب بالنادر، وبعربي السودان، فالإنسان كما يقول علماء علمي النفس والاجتماع: ابن بيئته التي عاش فيها وابن ثقافته التي تثقف بها»[2].

وأما مذهبه وعقيدته: فكان الإمام الشيخ عبد الله . كما ذكر عن نفسه . مالكيا، أشعريا.

وقال محمّد البخاري بن الشّيخ عثمان يمدح عبد الله بن فودي ويصفه بعظيم فهمه وعلمه وبتقواه وتواضعه، فهو علاّمة القرآن، وحاوي السّبق في علوم الحديث، ومتبحّر في البلاغة، وبحرٌ محيط في النّحو فيقول:

ولقد حباك الدّهر شيخاً ما له ... في العلم في تلك الأراضي ماثل

أعني إمام العصر عبد الله من ... ساد الشّيوخ النّبل مُذْ هو شَابل

شيْخ العلوم خديمه تبّاعها ... خدنٌ التّقيّ الحبر النّبيل الكامل

علم الهدى سعد الزّمان عماده ... حانٍ رفيقٌ بالأنام حلاحل

ذو شدّةٍ في دينه متواضعٌ ... ذو هيبةٍ برٍّ أمينٌ عامل

علاّمة القرآن حاوي السبق في ... علم الحديث وفي البلاغة كافل [3]

(1)- **راجع:**نفس المصدر ص:70.

(2)- **راجع:** حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط2، المكتبة الإفريقية، سنة:1993م /1414هـ.صـ: 106.

(3)- **راجع:** عبد الله بن فودي وحياته العلمية، صـ:77.و حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ص:105.

2.3 وفاته: كما كان الاختلاف في تاريخ ميلاده كان الاختلاف في زمن وفاته أيضا، لأنّ الباحثين لم يجدوا تاريخا محددا لوفاته، مثلما لم يجدوه لميلاده كذلك؛ ولذلك يستنبطونه من عمره الذي بلغ الستة والستين عاما، وقوله إنّ الشيخ عثمان يكبره باثني عشر عاما، توفي الشيخ عبد الله رحمه الله سنة 1246هـ، الموافق: 1830م، بمدينة (غُندُو، وله من العمر ستّ وستون عامًا) وهذا هو الرأي الراجح[1].

أما المصادر الذي اعتمدت عليها في نقل هذه القصائد فاثنان، الأول: النسخة الأصلية من كتاب تزيين الورقات لعبد الله بن فودي، وقد طبعت بمطبعة جامعة إبادن النيجيرية عام 1963م، والثاني: مجموعة من الدراسات الأكاديمية السابقة، والمقالات المحكمة، والتي كانت لي سندًا ودليلا وعونا في رسم خطة البحث وفي الوصول إلى المصادر والمراجع التي احتوت على المادة العلمية لهذا البحث.

3. نماذج لبعض نصوصه الشعرية في غرض الوصف:

المراد هنا الوصف الأدبى الذي يتناول الطبيعة والإنسان، والآثار القائمة، والمنشآت الجميلة، والحوادث الكبيرة، وكل ما يعنى للإنسان تسجيله باللغة، ويعتمد على الخيال وصدق التعبير.

وليس الوصف موضوعا جديدا فى الشعر العربي الإفريقي كما هو ظاهر لكل قارئ وباحث، بل إنه من الفنون التى تطرق إليها الشعراء في القرن التاسع عشر الميلادي في النيجيريا وغيرها من البلدان الإفريقية، وقد أورده الدكتور علي أبوبكر من الأبواب الشعرية التي طرقها الشعراء في تلك الفترة حيث قال معللا عن الشعر والشعراء في الفترة: «وليس لنيجيريا . في القرن التاسع عشر . شعراء على هذا المفهوم، وإنما لها علماء، وهؤلاء العلماء هم الذين قاموا بدور الشعراء، لأنهم هم وحدهم الذين استطاعوا أن يجيدوا اللغة العربية، ويتذوقوا سحرها وبلاغتها، ويتخذوها أداة للتعبير عن مشاعرهم وينظموا الشعر كما نظمه شعراء العربية وأدباؤها. وبالرغم من أن هؤلاء العلماء قد استخدموا بحور الشعر العربي إلا أن الأبواب التي طرقوها لا تزيد على سبعة وهي: الثناء على الله، والمديح، والوصف، والرثاء، والوعظ والإرشاد، والحكم والأمثال، والفكاهة" [2].

(1)– **راجع**: الثقافة العربية في نيجيريا من 1750 إلى 1960 م، صـ: 215.
(2) – **راجع**: الحصن الرصين، 185، وتزيين الورقات، صـ: 260.

وأما عن النماذج لشعر الوصف عند الشيخ عبد الله:

1.3 القصيدة البائية التي وصف بها حياتهم الاجتماعية في القرن التاسع عشر، فيقول:

وَلمَّا مَضَى صَحْبِي وضَاعَتْ مَآرِبِي ... وَخَـــلـــفت في الأخْلَاف أَهْلُ الأكَاذِبِ
يَقُولُون مـا لا يَفْعَـلُون وتَابَـــعُوا ... هَـــوَاهُـم وطَاعُوا الشُّحّ في كُلِّ وَاجِبِ
وَلَيْس لهُم عِلْم ولا يَسْـــــألُونَهُ ... وأعْـــجَـــبَ كُـلٌّ رأيُهُ في المَذاهِبِ
وَقَطّع أرْحَـــامًا وأزْرَى مَـــــعَارِفًا ... وآثـــــر عـن قُـرْبَاه جَـمْعَ الأشَائِـبِ
وَما همّهم أمْرَ المَسَـــاجِدِ بل وَلَا ... مَـــدَارِسِ عِـــلمٍ بَلهَ أَمْـرِ الكتَـــائِبِ
وَهِمّتُهُم مُلْكُ البلَاد وأهْـــــلِـــهَا ... لِـــتَـــحْـــصِيلِ لَذّاتٍ ونَيْـلِ المَـــرَاتِبِ
بِعَادَات كُفّار وأسْمَاءِ مُلكِـــــهِم ... وتـــوْلِـــيَةِ الجُهّال أعْلَى المَـــنَاصِبِ
وَأكْلِ هَدَايَا الجَاهِ والفَيْءُ والرُّشَـــا ... وعُـــودٍ ومِـــزْمَارٍ وضَرْبِ الدّبَـــادِبِ
وَإن قَرِينَ السُّوء يُعْدِي قَرِيـــنَـــهُ ... بِـــمَـــا فيـه إعْدَاءُ الصِّحَاحِ الأجَـارِبِ
وَقد طَارَ قَلبي للمدينة ثَـــــاوِيًا ... سِـــنـــين بِـها شَـوْقًا وليس بـــآئِبِ
صرفتُ عِنانِي عنهـمو متوجِّـــهًا ... إلى خَـــيْـــر خـلق الله معطي الرَّغَائِبِ
وَكم ليْلةٍ بِتْنَا بها نَـــــابِغِيَّـــةٍ ... ولا نَـــــار إلا نـــــارنا فـي السّـبَاسِبِ
وَسمَّـــــــارنا جِيرانُنا أقْرِبَاؤنَـــا ... بَعُـــوضٌ وحيّـــاتٌ وجَـــمْعُ العَقَارِبِ
أوَنِـــسُـــنَا أقْـــوَاسُـــنَـــا وجِعَابُنَا ... رِمَـــاحٌ وأسْـــيَـــافٌ رِفَـــاقُ المَضَارِبِ[1]

وإذا أمعنا النظر في هذه الأبيات نرى أن عبد الله بن فودي قد نجح إلى حد كبير في تصوير الحالة الاجتماعية في أسلوب متين واضح جلي، ولكنه لا يسعنا هنا أيضا إلا أن نقول إن تأثره بالمعلقات وعلى الأخص ببائية النابغة الذُّبياني واضح، وهي:

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أمَيْمَةَ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيء الكواكبِ

فكلتا القصيدتين بائيّ ومن بحر الطويل، وفضلا عن ذلك فهناك عشرة أبيات تنتهي بنفس الكلمات التي انتهت بها أبيات النابغة[2].

(1) – **راجع:** الثقافة العربية في نيجيريا، ص: 386.
(2) – **راجع:** الثقافة العربية في نيجيريا، ص: 389.

فإنّها امتداد للغة الشعر الجاهلي، حيث تعتمد على ألفاظ جزلة غريبة، لم تتغيّر إلاّ تغيّرا طفيفا جزئيا اقتضته طبيعة التغيّر الذى حدث فى العقيدة.وليس من شك أن الشاعر . في هذه القصيدة . تقليدي يقتفي أثر شعراء الجاهلية في أسلوبه.

وبناءً على هذا يمكن القول بأنّ الشاعر من أنصار لغة الشعر القديم، والعلّة في ذلك أنّ الشعراء لم يعرفوا . في تلك الفترة . عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة، ولا الأخطل، ولا جريرا، ولا الفرزدق، روّاد التجديد فى عهد بني أمية، ولم يسمعوا عن أبي تمام والبحتري والمتنبي، ولا عن أبي نواس وأبي العتاهية وبشّار وأمثالهم من روّاد التطوّر والتجديد في العصر العباسي، ولكن قرأوا لامرئ القيس والنّابغة وطرفة خصوصا زهير والحطيئة وغيرهما من الشعراء في العصر الجاهلي ممن أطلق عليهم اسم عبيد الشعر، كما عرفوا شيئا عن كعب بن زهير وحسّان بن ثابت وغيرهما من شعراء صدر الإسلام. ويرجع السبب في ذلك إلى أن دواوين أولئك لم تصلهم ودواوين هؤلاء وصلتهم[1].

2.3 ومنها قصيدة (جيش الفتوح):

هذه القصيدة قالها الشيخ عبد الله بن فودي في وصف الفتوح التي تحققت على أيدي الجيش الإسلامي تحت قيادته، وقد فتح الله لهم أكثر من عشرين حصنا من حصون الأعداء، ولهذا سمي جيشه في القصيدة بجيش الفتوح يبلغ عدد أبيات القصيدة 37 بيتا وكلها تدور حول الحديث عن النَّوَى، وفقدان الأحبة في الجهاد، ووصف الحرب، ويبدو من الكلام الذي جاء قبل القصيدة أنها قيلت بعد عام هجرة الفوديين، أي سنة 1805م.

هذا وللشيخ عبد الله قصائد كثيرة في الحرب وكلها على مستوى رفيع من البلاغة والروعة نذكر بعض منها:

بَدأتُ بحمْد الله والشّـــكر يتبع على قَمْعِ كُفّار علينا تَجمَّع

ودالیته التي مطلعها:

ألا مـــن مـبلغ عنِّي لدَادٍ وزيْـــدٍ وكـــل ثَاوٍ في بِلاد

هذا وتمثل قصيدة جيش الفتوح تطورا كبيرا في منهج شعر الوصف في الأدب العربي الإفريقي؛ لأنها أفردت لوصف الحرب وما جرى فيها من حصار، وقتل وتشريد، وإقبال

(1) – **راجع**: تزين الورقات، ص:30، وحركة الشيخ عثمان بن فودي في نهضة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ص:3، وانظر الإسلام في النيجيريا والشيخ عثمان بن فودي، ص: 109–107.

وإدبار، وأسر وغنيمة، من دون الاستطراد بالحديث خارج نطاق الموضوع، وهذه ظاهرة غير معهودة في الحقبة قبل العصر الفلانية، ويقول الشاعر:

تَـذكّرتُ والـذِّكْرَى تُثِيرُ لِذِي النَّوَى ... هُـمومًا وفي الـذِّكْرى تَهُـبُّ الـهَـوا

أَخِـلاَّءَ مَـاتوا في الجهاد وغيره ... وَبُـعْـدِيَ عن شَيْـخي فأَرَّقَـني الجَوَا[1]

فـمن مُـبلغٌ عـنِّي بَنِيَّ وإخْوتِـي ... وأهْـلي وجِـيـرَانِي ومـن مَعَهم ثَوَا[2]

بِأنِّي وَ دَنْـدَا مَـعَ عَـلِيٍّ وجَمْـعِنَا ... وأفْـرَاسِـنَـا في الـفتْح والعِزِّ والرِّوَا[3]

فَتَحْنَا حُـصُونًـا بين كُنْدَا وَكُنْـدُطَا ... يَـزيـدُ على عِـشْرين بِالقَهْرِ وَالقُوَا

وسـالمـنا رغـما سِوَاهَا فأسْلَمَـتْ ... بِـظَـاهِـرها والله يـعلم ما انطَوَا

وفي اثنين مـع عَشْرِ المـُحَرَّمِ فَتَحْنَا ... عَظِيمَ الحُـصُونِ حِصْنَ فُودِ الذِي غَوَا

فـغَـادَرَ في ذَا الحِـصْنِ مَالًا كَأنَّه ... لـقَـارُونَ لـم يَأخُذْ بِزَادٍ إلى القِوَا[4]

سَـمَا جَيْـشنا جَيْشَ الفُتُوحِ فَكُلّنا ... حَـوَى من فُـتُوحَاتِ الغَنَائِمِ مَا حَوَا

ولـيْـس لـنا أمـر يُسِيءُ قُلوبنا ... من الدين والـدنيا سوى وِحْشَةِ النَّوَا

وفَـقْـدِ أحِـبَّـاءٍ كِـرام تَتَابَعُوا ... لِـجَـنَّـات عَـدْنٍ في فِرَارِي وَثُنْثُوَا[5]

مَـتَى مَـا تَـذكرت الإمـام وحِزْبَهُ ... تَـمُـوج في قَلبي بُحُورٌ من الدَّوَا[6]

فـمِـن قَـتْلاهم فِي جَـهَنَّم دَائِمًا ... ومَـن فِي جِنَانِ الخُلْدِ لَيْسُوا عَلَى اسْتِوَا

فَـلَـسْتَ تَـرى إلا مُـغِيظًا وَمُخْنِقًا ... كَـوَى غيْرَه عن نَزْعِ سَهْمٍ أوِ اكْتَوَى[7]

فَـوَ الله لَـولا خَـنـدَقٌ وَمُـمَرَّدٌ ... عَـمِـيـقٌ طَوِيلٌ لاسْتَحَالُوا هَبَا الكُوَى[8]

رحـلـنَـا إليهم بالعيال وما لنا ... حَـصـرنَـاهم شَهْرا بِبَابِهم الحِوَى[9]

---

(1) – **فأَرَّقَني الجوا:** منعني الحزن من النوم.
(2)– **ومـن معهم ثوا:** أيْ سكن وأقام معهم.
(3)– **دَنْـدَا:** اسم فرسه. **الروا:** الارتياح.
(4)– **القوا:** أصله: **القواء،** فقصر للوزن، وهو الصحراء.
(5)– **فِرَارِي وَثُنْثُوَا:** اسمان لموضع في نيجيريا حاليا.
(6)– **الدوا:** المرض.
(7)– **ممرد:** مبنى عالٍ. **اكتوى:** طلب حرق غيره بالنار.
(8)– **هبا الكوا:** الهباء: هو الغبار المتناثر، والكوا: فتحة في الجدار.
(9)– **الحوا:** المسكن.

ولَـــم يَـبق بيت بين رِيم وحصنهم ... و مَـــازُم و مَـــازُوزِي لذلك ما خَوَى[1]

فَـــخَـــلوا لـــنا أقواتهم وبلادهم ... ونَـــحْـــن حِوَاءٌ بين زِرْوَ وَطَانْ رُوَى[2]

وَيَـــوم أتَـــونَـــا للقتال فأدْبَرُوا ... نُـــقَـــتِّـــلُـــهُم من تِلِّ مَاسُوا لِدَنْبَوَى[3]

وكَـــمْ مَـــرة جاءوا بيانا فأقشعوا ... ومـا فِـــيهم من صوب صاحبه ضَوَى[4]

وأخْـرى أتوني فيه خامس خمسة ... فـــولّـــوا وما نَـالوا الذي جمعهم نَوَى

وطَـــوْرًا أتَوا جمعا وحـينا توزعوا ... بِـــشَـــرق وغرب ثم خاب الذي غوى

ومَـــا سَـــاعة إلا يصـخ سماعنا ... صُـــرَاخ فـــتـــلقَاهم سِراعًا بِلَا التَّوَى[5]

عَـــلى كُـل جـرداء وأجـرد شيظم ... تَـــراه كَـــصـــفْـــراء الجراد إذا اسْتَوَى[6]

قَـــد اعتاد غـــارات الصباح تخاله ... إذا ما جرى فوق الـرُّبى طار في الهَوى

فَـــلـــمَّـــا رأونَـا لا نمـل جهادنا ... لـــقـــتـــل وأسر جلهم خاف فارعوى

ففروا إلى البـلدان شتى وجمـعهم ... بِـــجَـــمْـــع أناس كان في سبإ بوى[7]

فَـــللـــه حَـــمْدا أولا ثـم آخـرا ... فَـــقَـــد تم تظمي وهو حال لمن رَوَى[8]

التعليق على القصيدة:

افتتح الشاعر هذه القصيدة بتسجيل حنينه إلى من مات في الجهاد من أخلائه، ثم ذكر أن النوم قد فارق عينيه لبعده عن شيخه. ثم طلب من يحمل أخبار فتوحاته العديدة، وانتصاراته المتكررة إلى بنية وإخوته وأهله وجيرانه، فقد فتح هو وفرسه «**دندا**» وخادمه «علي»، وفرسانهم بالقوة والقهر عددا كبيرا يربو على العشرين من حصون الأعداء المنيعة بين (قندا وكندطا) كما أرغموا آخرين على المسالمة فأسلموا في الظاهر، لكن الله يعلم ما يضمرون فقال:

(1)- **خَوَى**: خلا.
(2)- **زِرْوَ، وَطَانْ رُوَى**: اسمان لموضع في نيجيريا حاليا.
(3)- **تِلِّ مَاسُوا، ودَنْبَوَى**: اسمان لموضع في نيجيريا حاليا.
(4)- **من صوب صاحبه ضوا**: من مال نحو صاحبه أو لجأ إليه.
(5)- **يصخ سماعنا**: يضرها فيصمّها.
(6)- **أجرد شيظم**: **الأجرد**: هو الفرس الخالي من الوبر. **والشيظم**: الفرس الطويل.
(7)- **بوا**: سكن.
(8) - **راجع**: تزين الورقات، ص:30، وحركة الشيخ عثمان بن فودي في نهضة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ص:3، وانظر الإسلام في النيجيريا والشيخ عثمان بن فودي، ص: 109-107.

تَــذكّرتُ والــذِّكْرَى تُثِيرُ لِذِي النَّوَى هُــمومًا وفي الـذِّكْرى تَهُـبُّ الـهَــوا

إلى قوله:

فَتَحْنَا حُــصُونًــا بين كُنْدَا وَكُنْدُطَا يَــزيــدُ على عِـشْرين بِالقَهْرِ وَالقُوَا

ثم أخذ يعدد الحصون المفتوحة على أيديهم، وهي: «**كُندَا، وَلِيمْ، ومَاسُوَ، وزيم،** وحصنا **دِنكَا وبَانذَ**»، وغيرها من الحصون المنيعة، ثم انتقل إلى ذكر قائد جيش أهل **(كب)** قائلا إنه فر وترك خلفه مالا كثيرا يشبه مال قارون وذلك في الأبيات التالية:

وســالمــنا رغــما سِوَاهَا فأسْلَمَتْ بِــظَــاهِــرها والله يــعلم ما انطَوَا

وفي اثنين مــع عَشْرِ المُحَرَّمِ فَتَحْنَا عَظِيمَ الحُــصُونِ حِصْنَ فُودِ الذِي غَوَا

فــغَــادَرَ في ذَا الحِصْنِ مَالًا كَأنَّه لــقَــارُونَ لــم يَأخُذْ بِزَادٍ إلى القِوَا

ثم انتقل إلى وصف جيشهم الذي يسمى جيش الفتوح، وقال: إنه علا وسما حتى تمّ له فتوحات كثيرة ووجدوا من الغنائم ما ليس بقليل، وبين أنه ليس هناك شيء يقلقهم في الدين وفي الدنيا سوى وحشة فقدان الأحباء الكرام الذين سقطوا ضحايا الحرب، وخص بالذكر بين هؤلاء الإمام **محمد ثَمْبُو** وجماعته، فذكراهم تسبب له المرض، ثم رد على الأعداء من قبيلة غُوبِرْ والتَّوَارِقْ سرورهم من قتلى المسلمين، قائلا إن الحرب سجال ودولة، وأن مآب قتلى المسلمين ليس سواء مع مآب قتلى الكفار، فقتلاهم في جهنم وقتلى المسلمين في جنة الخلد وذلك من قوله[1]:

سَــــمَا جَيْشنا جَيْشَ الفُتُوحِ فَكُلّنا حَــوَى من فُــتُوحَاتِ الغَنَائِمِ مَا حَوَا

إلى قوله:

فــمِــن قَــتْلَاهم فِي جَهَنَّم دَائِمًا ومَن فِي جِنَانِ الخُلْدِ لَيْسُوا عَلَى اسْتِوَا

وبعد ذلك عاد إلى ذكر أيامهم في القرى والحصون التي وقعت تحت أقدام جيش الفتح، والقرى وذكر أيضا سيرهم إلى مدن أخرى وحصارهم لها، ثم شرع في ذكر أحوال الغزاة وما دار في الحرب من القتل والطرد والهرب، ثم بين أنهم رحلوا إلى أعدائهم بعيالهم وأموالهم وحاصروهم شهرا كاملا مقيمين خلاله على بوابتهم ولم يبق بيت بين **رِيمِ** وحصنهم، وقد يكون ذلك بسبب تخريب الكفار لمنازلها، أما **مازم ومازوزي** فلم يتم تخريبهما، ولقد تم جلاء الأعداء حتى تركوا لهم أطعمتهم وبلادهم، على حين شيدوا هم أكواخهم بين **زَرْوَ وطَنْ رُوَا** وذلك من قوله:

(1)- **راجع**: نفس المصدر.

فَـــلَـــسْتَ تَرى إلا مُغِيظًا وَمُخْنِقًا كَـــــوَى غيْرَه عن نَزْعِ سَهْمٍ أوِ اكْتَوَى

إلى قوله:

وَيَـــــوم أتَـــونَـــا للقتال فأدْبَرُوا نُـــقَـــتِّـــلُـــهُم من تِلِّ مَاسُوَا لِدَنْبَوَى

ثم قال إنه كثيرا ما يأتيهم الأعداء لقتالهم لكنهم يصدونهم صدا يرغمهم على الإدبار هاربين، ثم يقاتلونهم من **تِلِّ مَاسُوَا** إلى **دَنْبَوَى**. وكثيرا ما يهاجمهم الأعداء ليلا لكنهم ما يلبثون أن يفروا متفرقين، وكشف أن الأعداء ذات مرة هاجموا خمسة كان هو واحد منهم، لكنهم أرغموهم على الانسحاب خائبين. وكشف عن خطة الأعداء في الهجوم، فهم طورا يأتون جماعة وطورا آخر يأتون متفرقين من شرق وغرب، غير أنهم في كلتا الحالتين يخيب آمالهم، وأوضح أنه لا تمضي ساعة إلا ويقرع أسماعهم صراخ النجدة من المقاتلين، وأنهم ما إن يسمعوا ذلك حتى ينجدوهم بلا توان.

ثم انتقل إلى وصف الأفراس التي يقاتلون بها أنها عظيمة وصلبة حتى صارت جرداء من الشعر نتيجة كثرة خوضها للمعارك. وقد نظر في ذلك إلى قول عنترة بن شداد في معلقته:

وَالخَيْلُ تَقْتَحِمُ الغُبَارَ عَوَابِساً، من بَيْنِ شَيْظَمَةٍ، وأَجْرَدَ شَيْظَمِ

وشبهها في سرعة تنقلها بصفراء الجراد حين تطير، وأضاف أن الأفراس قد اعتادت غارات الصباح، وأنها حين تجري يخيل لك أنها تطير فوق الهضاب.

وانتقل إلى وصف الأعداء قائلا إنهم لما رأوا تجلدهم وعدم مللهم في القتل والأسر في سبيل الجهاد خافوا واضطربوا وتركوا أمر القتال وفروا جميعا إلى بلدان مختلفة، مثلهم مثل أهل سبأ، وهم قوم انقرضوا، وختم الشاعر القصيدة بالحمد لله أولا وأخيرا، وبشيء من الفخر بأن القصيدة تحلو لمن يرويها بقول:

فَفِرُّوا إلى البُلدان شَتَّى وجمعهم بِـــجَـــمْـــع أنُاسٍ كَان في سَبَإٍ بَوَى

فَـــللـــه حَـــمْدا أولا ثم آخرا فَـــقَـــدْ تَمَّ نَظْمِي وَهْوَ حَالٌ لِمَنْ رَوَى

وقد صور هذه القصيدة وصف الحرب في العصر االفلاني منهجا وأسلوبا ولغة وخيالا، فأول ما نلاحظ فيها أن الشاعر لم يبال بوصف دقائق الحرب، كوصف اكفهرار الغبار الذي نجده في مثل قول بشَّار بن برد:

كَأَنَّ مُثارَ النَقْعِ فَوْقَ رُءُوسِنا وأَسْيافَنَا لَيْلٌ تَهاوَى كَواكِبُهْ

أو وصف البسالة والتفتك والتمزق الذي نجده عند عنترة في قوله:

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عِنْد المَغْنَمِ

فشَكَكْتُ بالرُّمحِ الطَّوِيلِ ثِيابَهُ لَيْـــسَ الكَرِيمُ على القَنَا بِمُحَرَّمِ

أو وصف خصائص السيف والرمح الذي نجده في قول الشنفري:

هَتُوفٌ من المُلْسِ المُتُونِ يَزِيُهَا رَصَائعُ قد نِيطَتْ إِليها ومِحْمَلُ

إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّت كأَنّهَا مُـــرَزَّأَةٌ ثـــكْـــلَى ترِنُّ وتُعْوِلُ

لكننا بدل من ذلك كله نجد الشاعر يقول إنهم فتحوا حصونا تزيد على العشرين بالقهر، وأن الأعداء فروا وتفرقوا في البلاد مثلهم مثل أهل سبأ، أما معمعة الحرب ونيرانها، فإن الشاعر لم يتعرض لذكر تفاصليها. وكما نلاحظ أيضا أنه لم يعتن بإيراد المعدات الحربية المتنوعة التي استعان بها الجانبان المتقاتلان لعل ذلك يساعدنا على الوقوف على مدى التطور الذي وصلت إليه الصناعة الحربية في تلك الحقبة من الزمن.

ولكن الحقيقة التي يجب التنبه لها أن الشاعر ربما لا يحتاج إلى تلك التفاصيل كما احتاج إليها الشاعر العربي الذي اتخذ قرض الشعر مهنة وحرفة، وذلك لأسباب عدة منها:

1- أن الذي يعني هذا الشاعر أكثر هو الإعلان عن قوة عساكر المسلمين، وتدوين الغزوات التي خاضوها ومواضعها في سجل التاريخ، حفاظا عليها من الضياع والنسيان، يدونها للأجيال القادمة كمواد تاريخية يتدارسونها، ولهذا لم يغادر غزوة أو موقعة من مواقع الحرب إلا وذكرها.

2- أن الشاعر كما ذكرنا آنفا عالم فقيه، وقائد حرب باسل، رغبته الأساسية في نظم القصيدة تدوين الوقائع الحربية باللغة العربية تقديرا واحياء لها وحفاظا عليها، وهي اللغة التي تمثل جانبا مهما من ثقافته وشخصيته، وجانبا أهم من عقيدة الإسلام. ولا شك أن الشاعر قد وُفّق إلى تحقيق هذين الغرضين.

3.3 ومنها وصف الصحراء:

هذه القصيدة قالها الشيخ عبد الله بن فودي وهو في طريقه إلى بلدة **(كَانُو Kano)** يبلغ عدد أبيات هذه القصيدة 41 بيتا، مطلعها:

ولمَّا مَضَى صَحْبِي وَضَاعَتْ مَآرِبِي وَخلَّفَت فِي الأَخْلَاقِ أهْل الأَكَاذِب

وخاتمتها قوله:

عَلَيْكُم صَلاةُ الله ثُمّ سَلَامُهُ بِأصْحَابِكُم وَالآلِ يَا كَهْفَ هَارِبِ

ويبدو أن الشيخ نظم القصيدة بين عامي: 1221هـ و1222هـ الموافق(1807م)؛ لأنه كما قال نظمها في طريقهم إلى خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم ولم يخرجها لأحد حتى وصلوا بلدة **كَنُو** فألحّ عليه أهلها في إخراجها فكتبها لهم، ثم ألف لهم كتاب (ضياء الحكام) وكان ذلك في السنة الرابعة من هجرتهم؛ لأن هجرتهم بدأت يوم 10 من ذي القعدة عام: 1218هـ الموافق 21 من فبراير 1804م[1].

والقصيدة بائية تدور مواضيعها حول وصف أحوال الناس السيئة من جهل، وترك لطلب العلم، وتضييع للأمانة، وتولية المناصب للجهال، وغير ذلك مما حمله على صرف عنانه عنهم متوجها نحو مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كما تدور حول وصف الصحراء ومدح الرسول الكريم.

هذا، ويعد وصف الصحراء من الأغراض التي لم تحظ باهتمام شعراء هذه الحقبة، ولعل الشاعر بهذه القصيدة فريد دهره في تناول هذا الغرض إذ لم نعثر على قصيدة أخرى تعرضت لوصف الصحراء، على الأقل بمثل هذا التفصيل. وسأختار من القصيدة الأبيات التي يصف الشاعر بها الصحراء وهي:

وَقَـدْ طَـار قَـلْبِي للـمَدِينَة ثَاوِيًا سِـنِـين بِهَا شَوْقًا وَلَيْسَ بِنَائِبِ

وَقَـيَّـدَ جِـسْمِي عنه ذَنْبي حائرًا بِـصَـدْرٍ هَـوَاءٍ فاقِدِ القَلْبِ ذَائِبِ

صَـرَفْـت عناني عنهم متوجها إلى خَـير خلق الله معطي الرغائب

وَصَبَّـرتُ نَفْسي في رُكُوبِ مَفَاوِزٍ خِـلال فُـيُولٍ كَالهِضَاب قَوَارِبِ

ولا أثَـرٌ في الأرض إلا الذي لها رَبِـيـعًا وصَيْفًا كَالبِنَارِ السَّوَاقِـبِ

أسِـيـرُ بِـلا علم ولا قَوْدَ قَائِدٍ وَنَيْلِ سَـبِيلٍ فـي الفَيَافِي العَوَاشِـبِ

بِـخَمْسَة أحْرَار كَذَاكَ الرَّقِيق مع ثَـلاثَـةِ أفْـرَاسٍ كَمثْل الرَّكَائِـبِ

نَـشِيمُ عُطَاشًا حِينَ حَانَ نُزُولُنَا ذَوَائِـبَ أشْـجَارِ المِيَاه الشـوَارِبِ

(1)– **راجع:** تزيين الوقارت عبد الله بن فودي، ص:74، و مصباح الدراسات الأدبية، ص:143، وحركة اللغة العربية، 243.

وَكَـــم لَـــيْـــلـةٍ بِـــتْنَا بِهَا نَابِـــغِيَّةٍ ... ولا نَـــارَ إلا نَـــارُنَا فـي الـــسَّبَاسِبِ

وَسُـــمَّـــارُنَـــا جِـيرانُنا أقْرَبَاؤُنَـــا ... بَـــعُوضٌ وَحَيَّـاةٌ وجَمْعُ العَـــقَارِبِ

خَـــمَائِلها والقَـــاعُ أثْمَارُهَا الأَضَا ... جِدَارٌ وَدَارٌ والـقَرَى كأْسُ شَـــارِبِ

أَوَانِـــسُـــنَا أقْـوَاسُنَا وَجِـــعَابُـــنَا ... رِمَـــاحٌ وَأسْيَـافٌ رِقَاقُ المَـــضَارِبِ

وَصَـــار لنا الآثَـــارُ للنَّاس بَعْد مَا ... قَـــربْـنَا لعُمْرانٍ عَجِـيبَ العَـجَائِبِ

وَأَولَى كـــلامُ النَّاس أحْرَى دِيَارُهُم ... وأنـــفُسُهُم صـارَتْ غَـرِيـبَ الغرَائِبِ

فَـقُلتُ وَذَا أمـــرٌ يَسِيرٌ بِجَـنبِ مَا ... نُـــرِيـدُ إذَا مَـــا حُمَّ نَيْلُ المـنَارِبِ

أَحَادِي المَـطَايَا حُـثَّهَا للمَشَارِقِ ... ولا تَـــلْـــتَفِتْ فِـــي سَيْرِنَا للمَـغَارِبِ

فَـــإن حَـظِيَتْ بالوَصْلِ فالله واهبٌ ... وإن أخْفَقَتْ فَـــالـذنبُ فيـه لـذَاهِبِ[1]

التعليق على القصيدة:

تمثل هذه القصيدة نموذجا حيّا، وصورا متكاملة للوصف في هذه الحقبة، رسم لنا الشاعر خلالها لوحة فنية رائعة تعكس بوضوح البيئة الصحراوية الإفريقية، ولا شك أن الشاعر قد أجاد في هذا الوصف إجادة تجعله في صفّ واحد مع أبرز وصافي الصحراء من الشعراء العرب قديما وحديثا، فها هو ذا الشاعر ينقل لنا الفيافي بحيواناتها وأشجارها وغياهبها وآثارها، وغير ذلك من مظاهر الصحراء نقلا حيا صادقا، هذا وقد تأثر في كثير من معانيه بالقصيدة الجاهلية، ولكن لم يكن ذلك منه تقليد أعمى، بل كان صادق العاطفة والشعور، فقد جعل صحراءه، على سبيل المثال، معشبا وذلك طبعا لواقع بيئته الجغرافية، على خلاف الصحراوات القاحلة التي عاش فيها الشعراء الجاهليون مثلا.

يقول الشاعر إنه صرف فرسه عن قوم وصف أحوالهم في أبيات سابقة، متوجها به نحو خير خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم وبما أنه كان عليه أن يقطع الفيافي الطروحة قبل وصوله مرماه. – وفي قطع الفيافي ما فيه من التعب والنصب–فقد صبر نفسه غير متعجل. ومن مغامرات السفر في الصحراء القاحلة مقابلة الوحوش وأنواع من الحيوانات الضارية وجها لوجه، مع قلة المحتمي. ومنها أيضا قلة المياه وعدم الأوانس مما يسير الذعر في نفوس الرحل، وكل هذا يحمل الراحل على الصبر أو التصبر.

والشاعر يسير بين فيول ضخام كالهضاب ملتمسا الماء في جوف الليل، ولم يجد في

(1) – **راجع:** نفس المصدر.

الأرض إلا آثار الفيول تلك، وقد وصف الآثار بأنها كالبئار في الشكل والصورة، إلا أنها غير عميقة، بل هي قريبة السقي.

ثم ذكر الشاعر عدد المسافرين معه في الفلاة، فهم خمسة أحرار، وخمسة أرقاء، وثلاثة أفراس، وثلاث من الإبل وهم جميعا يسيرون في متاهات الفلاة بل سابق علم، أو إرشاد قائد بل ولا أثر يسيرون على معالمه، ولما حان وقت نزولهم اشرأبت نفوسهم إلى ذوائب أشجار المياه وهم عطاش. ثم شبه الليالي التي قضوها في الفلاة بالليل الذي وصفه الشاعر الجاهلي المشهور النابغة الذبياني حين أثقلته الهموم، وذلك في قوله[1]:

كِـــلِيـــنِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ وَلَـــيْلٍ أُقَـــاسِيهِ بَطِيءِ الكواكِبِ

تَطَاوَلَ حتى قلتُ: ليس بمُنْقَضٍ وَلَـــيْسَ الذِي يَهْدِي النجومَ بِآئِبِ

ثم شرع يعدد لنا أصدقاءهم وجيرانهم الجدد في الصحراء، وذلك على عادة الشعراء الجاهليين الذين يتخذون من بين الحيوانات أو أدوات الحرب جيرانا. فقال إن سمارهم بعوض، وجيرانهم حيات، أما أقرباؤهم فعقارب، وهذا يذكرنا قول الشاعر الصعلوك الشنفري الأزدي، في لاميته المشهورة:

وَلِي دُوْنَـــكُمْ أَهْلُون: سِيدٌ عَمَلَّسٌ وَأَرْقَـــطُ زُهْـــلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْئَلُ

وأما عن الصور الفنية: فقد ذكر أربعة أشياء هي نادرة الوجود في الصحراء، وهي: **الخمائل** (الأشجار الملتفة)، والقاع، والثمار، والأضا (الغدير) وشبهها بأربعة أشياء مألوفة في الحضر، فأشجار الصحراء بمثابة الجدار، وقيعانها تقوم مقام الدار، وأثمارها قرى الضيف، أما أضياتها فكأس شارب، ونفهم من هذا أن المشبه به غير متوفرة في صحرائه، والمشبهات هي التي تقوم مقامها.

ثم استمر الشاعر في ذكر أصدقائهم الذين استأنسوا إليهم، وهي: «**أقواس، وجعاب، ورماح، وأسياف**». ثم قال إن آثار الناس التي رأوها بالقرب من البلاد لمن أعجب العجائب، بل كلام الناس، وديارهم وأنفسهم كل ذلك من غرائب ما سمعوا وشاهدوا، ولكن تلكم العجائب والغرائب أمر يسير لا يساوي شيئا إذا قورن بما كانوا يأملون ويرغبون فيه إذا تم لهم.

وأخيرا، طالب الشاعر حادي مطاياهم أن يحثها نحو المشرق غير ملتفت نحو المغرب، فإن أوصلتهم المطايا الغاية والمنى فتلك هبة من الله وتوفيق، وإن عجزت فلا

(1)– **راجع:** تزيين الوقارت عبد الله بن فودي، ص:74، و مصباح الدراسات الأدبية، ص:143، وحركة اللغة العربية، 243.

لوم إلا على الركاب المسافرين. وختم القصيدة بمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

4.3 وحدة البيت في قصائده:

يرى معظم نقاد العرب أن البيت في القصيدة ينبغي أن يستقل بمعناه، وألا يحتاج البيت إلى غيره ليستكمل هذا المعنى، وعدو من العيوب في الشعر أن يحتاج البيت إلى غيره ليتم معناه، ويسمى هذا البيت مبتوراً، لأنهم يفضلون استقلال البيت الواحد بمعناه، وهم في ذلك يستجيبون للطبيعة العربية التي تؤثر الإيجاز، بل إن من أسس المفاضلة عند النقاد أن يشتمل البيت الواحد على أكثر من معنى [1].

وإذا رجعنا إلى شاعرنا نجد ذلك في قصائده خذ مثلا قوله:

وعرش بلقيس من إيصاله عِبرٌ ما بين سُرْعة جِنِّيّ وإنسان

وترى أن البيت قد اشتمل على أكثر من معنى.

وكما نلاحظ أن عبد الله با فودي قد حاول في بناء قصيدته بناءاً فنياً، من حيث الموضوع وترابط بأجزاءها يقول:

وَلمَّا مَضَى صَحْبِي وضَاعَتْ مَآرِبِي وَخَـــلـــفت في الأخْلَاف أَهْلُ الأكَاذِبِ

يَقُولُون مـا لا يَفْعَـلُون وتَابَـــعُوا هَـــوَاهُـم وطَاعُوا الشُّحّ في كُلِّ وَاجِبِ

وَلَيْس لهُم عِلْم ولا يَسْـــــألُونَهُ وأعْـــجَـــبَ كُـلٌّ رأيُهُ في المَذاهِبِ[2]

ومن هنا نلاحظ وحدة الأبيات مجمعة من عناصر مترابطة، تصوغها فكرة الشاعر لتصور خبرته ومعرفة إزاء حدث نفسي، أو كوني، أو يومي، ولا تزال نفسه تنفعل به وتهتز إزاءه في خطوط واتجاهات مختلفة. وعلى هذا الاتجاه نجد عبد الله بن فوي قد اتبع الوحدة العضوية في قصائده سواء من مطلع القصيدة كما في قوله:

تَـذكّرتُ والـذِّكْرَى تُثِيرُ لِذِي النَّوَى هُـمومًا وفي الـذِّكْرى تَهُـبُّ الـهَـوا[3]

أَخِـلَّاءَ مَـاتوا في الجهاد وغيره وَبُـعْـدِيَ عن شَيْـخي فأرَّقَـني الجَوَا

فـمن مُـبلغٌ عـنِّي بَنِيَّ وإخْوتِي وأهْـلي وجِـيـرَانِي ومـن مَعَهم ثَوَا

أو من خاتمة القصيدة:

(1)- أسس النقد الأدبي عند العرب، صـ: 294.

(2) - عبد الله بن فودي: مختارات من مؤلفاته، صـ: 236.

(3) - **راجع**: تزين الورقات، ص:30، وحركة الشيخ عثمان بن فودي في نهضة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ص:3، وانظر الإسلام في النيجيريا والشيخ عثمان بن فودي، ص: 109-107.

ففروا إلى البـلدان شتى وجمعهم بِـــجَـــمْـــع أناس كان في سبإ بوى

فَـــللـــه حَـــمْدا أولا ثم آخرا فَـــقَـــد تم تظمي وهو حال لمن رَوَى[1]

وهذه القصيدة تتناول غرضا واحدا وهو وصف الحرب وهي مثال في الوحدة العضوية والأبيات.

4. خاتمة:

وفي نهاية هذا البحث أذكر أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها بعد كتابة هذا البحث وهي:

1. لقد ترك علماؤنا في إفريقيا جنوب الصحراء من الشعر العربي ما لايستهان به إذا عرض على ضوء النقد الأدبي، بحيث لو اطلع عليه العربي القح أو الناقد النزيه لما وسعه إلا أن يطأطئ رأسه، إعجابا بالقريحة التي جادت بها رغم بعد الدار بينهم وبين بلاد العرب، إضافة إلى عدم توفر التسهيلات الحديثة، وأهم الأغراض التي نظموا أشعارهم فيها: المدح، والرثاء، والشعر التعليمي، والوصف، والوعظ والإرشاد، والغزل والزهد والشكوى والحنين والتوسلات إضافة إلى شعر المناسبات.

2. كان عبد الله بن فودي فارس زمانه ووحيد عصره في كثرة التأليف والتصنيف للعلوم الإسلامية واللغوية وغيرها من العلوم، ولم نجد من يماثله أو يقاربه في هذا على مستوى المنطقة بأسرها، وكان تأثره بالإمام السيوطي جعله يتطلع إلى كثرة التأليف والتصنيف لعلّه يقارب الإمام السيوطي في هذا الصنيع.

3. تكثيف الجهود في خدمة مؤلفات الشيخ عبد الله بن فودي خاصة، وخدمة مؤلفات علماء إفريقيا جنوب الصحراء بصفة عامة، وإقامة مؤتمرات وندوات وإنشاء مجلات وحوليات عن هؤلاء العلماء الأجلاء.

4. تحقيق كثير من مؤلفات علماء صكتو الإصلاحيين المجددين التي لم تظهر، ولم تخرج إلى عالم الطباعة والنشر، لنستفيد بها في قراءة تراثنا والاستفادة بما وضعه سلفنا من العلوم النافعة، والفوائد الدقيقة التي تكشف تاريخنا وجهود أجدادنا في ميدان العلم والتأليف في شتى العلوم، لأن في مؤلفاتهم هذه علوما كثيرة ومنافع عديدة، الحمد لله قد قام بعضهم بهذا العمل حيث أنه حقق كثير منها، لكن حتى الآن هناك العديد من مؤلفاتهم غير محققة.

(1) – **راجع:** عبد الله بن فودي: مختارات من مؤلفاته، صـ: 237.

يوصي الباحث بأن تهتم المؤسسات والمراكز ومعاهد البحث العلمي بدراسة الأدب العربي الإفريقي، خاصة شعر الشيخ عبدالله بن فودي وطباعة الكتب التي تركها لإحياء التراث الأدبي العربي حتى يطلع الباحثون على ما قدمه الأدباءالأفارقة في المجال الأدبي، الذي ساعد على الوعي بقضايا الأمة الإجتماعية والثقافية والروحية.

5 – ندعو إخواننا الطلاب ولا سيما الذين في مراحل الدراسات العليا بالقيام بدراسة مؤلفات هؤلاء العلماء الأجلاء.

6 – معظم قصائد عبد الله بن فودي تتصف بالسهولة والرصانة، إلى جانب بساطة التراكيب وتسلسل المعاني، وجودة الأسلوب.

قائمة المصادر والمراجع:

1- آدم، عبد الله الإلورى: مصباح الدراسات الأدبية في الديار النيجيرية، ط1، 1967م.

2-شيخو، أحمد سعيد غلادنثي: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، الطبعة الثانية، شركة العيبكان للطباعة والنشر، الرياض، السعودية.

2-**عبد الله ابن فودي:** «مختارات من مؤلفات الشيخ عبد الله بن فودي، غسو: دار إقرأ للطباعة والنشر، نيجيريا، سنة: 2013م،

3- عبد الله بن فودي: الحصن الرصين، تحقيق: محمد صالح حسين، دار الفكر بيروت لبان ط1، 1984م.

4- عبد الله بن فودي: تزيين الورقات، طبع على نفقة مودي حباري صكتو نيجيريا.

5- عبد الله بن فودي: مطية الزاد إلى المعاد، تحقيق: د/ سليمان موسى، دار إقرأ للطباعة والتوزيع، 2013م، جامعة عثمان بن فوديو صكتو نيجيرا.

6- عبد الباقي شعيب أغاك: أساليب بلاغية في ديوان الأستاذ عبد الله بن فودي مكتبة دار الأمة سنة 1429هـ 2008م، نقلا عن كتاب إيداع النسوخ لعبد الله بن فودي.

7- علي أبو بكر: الثقافة العربية في نيجيريا، كانو: نيجيريا، ط2، سنة: 2014م، دار الأمة.

8- غلادنثي، شيخو أحمد سعيد: حركة اللغة العربية وآدابها في نيجيريا، ط2، المكتبة الإفريقية، سنة: 1993م/1414هـ.

9- محمد كبير يونس: «عبد الله بن فودي وحياته العلمية» حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد الرابع، سنة: 1998م.

10- محمد بلو: إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور - وزارة الأوقاف - القاهرة 1964م.